

البَابُ الثَّانِي

العولمة أو (الكوكبية)

« الإعصار الخفى »

obeikandi.com

العولمة أو « الكوكبية »

الإعصار الخفى

مهَيِّئاً :

حينما انتصف القرن العشرون بدأ العالم يتعامل مع الموجه الثالثة بتطوراتها الهائلة وأحداثها المأساوية وصدوماتها المرعبة وقوتها الصاعقة .

والسؤال هو: هل صحا العالم ذات صباح على هذا الإعصار الخفى؟ وهل تشكل ذات ليلة نظام عالمى جديد فاجأ البشرية بفجر واقع جديد قلب حياتهم رأساً على عقب؟ أو هو تسارع فى شريط المسيرة التاريخية بنظام الإسراع إلى الأمام *Fast forward* فى أجهزة عرض "أفلام الفيديو"؟

الأصح أننا فى مواجهة نظام قديم جديد فى شكل مختلف لقد تلاحقت أحداث التطور بسرعة مذهلة فاقت قدرة الكثيرين على المتابعة والاستيعاب فكانت صدمة المستقبل التى تحدث عنها "*Toffler*" من قبل ، كما أن طبيعة النظام الاعتباري كانت تجرى فى معظمها فى مجال الحقيقة الاعتبارية وفى إطار إلكتروني لا يمكن الإحساس به مادياً إلا إذا تهورنا بالإصرار على لمس أسلاكه الكهربائية وتجربة آثاره الصاعقة ، ولذلك فإن التغيرات تسلمت فى الغالب إلى عقر دارنا، بل وإلى عقولنا، أدركت القلة فقط حجم التغير

الخفى الذى طرأ على العالم، ولكن جوهر النظام الجديد لازال على حد تعبير "نوم شومسكى" *Noam Chomsky* لاشيء جديد فى النظام العالمى فالقواعد الأساسية لازالت كما هى قواعد القانون للضعفاء ، وسطوة القوة للأقوياء : العقلانية الاقتصادية والإصلاح الاقتصادى للضعفاء وقوة الدولة وحق التدخل والسيطرة للأقوياء .

تغيرت الأشكال : - شكل القوة وأسلوب تطبيقها - شكل القانون وقواعد ممارسته - نوعية المصالح وكيفية حمايتها .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت مقولة " تشرشل " الشهيرة : " إن حكم العالم يجب أن يكون للدول التى أشبعت حاجاتها ، ولو ترك حكم العالم للشعوب الجوعى لكان هناك خطر داهم على العالم كله " .

وبإزالة ما تبقى من ماء الوجه من كلام " تشرشل " تبقى القاعدة المحددة للنظام العالمى : الأغنياء فى المجتمعات الغنية يجب أن يحكموا العالم ، يتنافسون فيما بينهم ، ويقمعون من يقف فى طريقهم ، يساعدهم فى ذلك الأغنياء فى الدول الفقيرة ، والآخرون يخدمون ويطيعون ويتحملون.

طبيعة العولة :

الجدل قائم فى كل مكان .. الناس يتساءلون .. العامة يتكلمون .. المثقفون يختلفون .. بعض الناس يتحدثون عن وحش مرعب .. يتحاكون عن قسوته وجبروته .. ولكنهم لم يشاهدوه ، والبعض يتبادل أخبار الوياء الخطير الذى داهم الناس ويتباكون على أخبار ضحاياه .. والبعض الآخر يتكلم عن المنقذ الأسطورى الذى طال انتظاره ، والذى ستمطر السماء فى عهده ذهباً وفضة ، كما يأتى حاملاً معه أكسير الحياة وحجر الفلاسفة ومفاتيح السعادة .

والنقاش على أشده بين من يحاولون الإجابة عن سؤال خطير: هل ندخل العولة أو نرفضها ؟ والسؤال مغلوط وغير مطروح أصلاً فقد أصبحنا فعلاً جزءاً من العولة .

الكل منشغل بالعولة ، ولكن الجدل والنقاش يدور على غرار الأسطورة الهندية الشهيرة : التى تحكى عما حدث من اجتماع مجموعة من " العميان" مع فيل كبير، واخذوا يصفون ما يتحسون ، والعميان العشرة وصفوا كل شىء إلا الفيل .. كل منهم تحسس جزءاً وأطلق لخياله العنان وشخص شيئاً أو مخلوقاً لا علاقة له بالواقع .

البعض يبسط الأمور .. أو بالأحرى يبسطها ، ويعتبر العولة هى سيادة وانتصار اقتصاد السوق والديمقراطية ، أو أنها بشكل عملى أكثر هى عملية أمركة للنظام العالمى .

العولمة فى الواقع مفهوم تجرىدى ، هو مفهوم مركب نو أبعاد اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية ، وفى إطاره يصبح البعد الجغرافى أقل تأثيراً فى إقامة واستمرار العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية عبر الحدود والمسافات .

والعالم لا ينكمش حقيقة ولكن المسافات تصبح عملياً أقل استهلاكاً للوقت ، وفى إطار العولمة ينسلخ الناس والرموز والسلع من البعد الجغرافى وينتزعون فى كثير من الأحيان من جذورهم الوطنية وتفقد كثير من الشعوب والمجتمعات الحماية التى كانت تكفلها لها حدودها .

لقد شاع استعمال تعريف العولمة بدرجة كبيرة فى التسعينات خاصة بعد انهيار سور برلين ، وسقوط الاتحاد السوفيتى ، ولكن التعريف كان شائعاً منذ الستينات ، حينما شاع شعار: " فكر عالمياً ونفذ محلياً " *Think Globally And Act Locally* ولكن المفهوم نفسه يمتد أبعد من هذا بكثير إلى القرن الخامس عشر ، ونقلته النوعية عبر الحدود التقليدية ، حيث بدأت تتبلور إرهابات العولمة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، وفرضت انتقالاً غير مسبوق للسلع والمنتجات والأفكار والتقنيات عبر الحدود وعبر المحيطات .

بينما يرى " توماس فيردمان " *Thomas Friedman* كاتب العمود الرئيسى فى جريدة " نيو يورك تايمز " *New York Times* : " أن العولمة الحالية هى مجرد جولة جديدة " (الجولة الثانية فى تقديره) بعد الجولة الأولى التى بدأت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بحكم

التوسع الهائل فى الرحلات البحرية باستخدام طاقة البخار والتي أدت إلى اتساع حجم التجارة الدولية بشكل لم يسبق له مثيل .

وأياً كان الأمر فإن من اللافت للنظر أنه فى أعقاب كل جولة من جولات العولة ، شهد العالم حروباً عالمية أو محلية ، وموجات من النزاعات والصراعات المحلية ، وحملات من التطهير العرقى وإزهاقاً غير مسبوق لأرواح ملايين من البشر، وازدياداً لمعدلات الإرهاب والتطرف .

obeikandi.com

الفصل الأول

ديناميكية العولمة أو « الكوكبية »

أولاً : المحركات الانسانية :

المحرك الأول : الثورة « التكنولوجية » وثورة الاتصالات :

لا شك أن أهم المحركات لظاهرة العولمة كانت القدرة التكنولوجية وثورة الاتصالات التي استطاعت بطريقة عملية أن تخترق حواجز الزمان والمكان، وأن تحول الحدود كل الحدود إلى كيانات مسامية *Porous* ، وأن تلغى واقعيًا فكرة الحواجز أو الأسوار.

إن العزلة المطلقة التي كانت سائدة ما يقرب من مليوني سنة والعزلة النسبية التي سادت لألفيات خمس بدأت تتبدد بشكل متسارع في القرون الخمسة الأخيرة ، بدءاً من القرن الخامس عشر، واقتلعت من أساسها في العقود الخمسة الأخيرة ، وأصبح الحدث أينما وقع حدثاً عالمياً بمجرد حدوثه ورؤيته أو سماعه عبر طرق الاتصال الفائقة السرعة ، كما أن انتقال الانسان والسلع والآلات وانتقال المعرفة من مكان إلى مكان أصبح واقعاً يومياً لا يمكن أن تلغيه حواجز أو إجراءات ، ولا يخضع في معظم الأحيان لإرادة أحد ، وفي كثير من الأحيان لا يتم بعلم أحد .

المحرك الثانى : اقتصاد السوق :

والمحرك الثانى هو فى سيادة وانتصار الديمقراطية (بصرف النظر عن جوهرها الحقيقى) ، واقتصاد السوق ، وسقوط نظرية الاقتصاد الموجه والتطبيقات الماركسية .

فلا يوجد فى العالم نشاط فى جوهره عالمى كالتجارة ، ولا توجد "أيدولوجية" تتجاهل الكيانات الوطنية كالرأسمالية ، ولا يوجد تحد أكثر وقاحة وجرأة على الحدود كالسوق .

وإذا كنا نطلق أحيانا - فى إطار العولة - على بعض المؤسسات أنها متعددة الجنسية فإنها فى الواقع متعددة الجنسية ، أو مؤسسات فوق الجنسية أو الوطنية .

المحرك الثالث : عولة الإنتاج :

العوامل التقليدية من رأس مال ومواد خام وأرض وعمالة أصبحت كلها ذات طبيعة دولية ؛ فرأس المال الموجود الآن فى الصناعات الكبرى فى مختلف دول العالم أصبح ذا طبيعة متعددة الجنسيات ، بل إنه من المتعذر فى كثير من الأحيان أن تتبع بدقة مصادر رأس المال الحقيقية .

ومن المثير للدهشة طبيعة المساهمين فى نظام الاحتياطى "الفيدرالى" الأمريكى *Federal Reserve* طبقا لما يذكره "ماك ماستر" *Mc Master* الذى يصدر مجلة مالية باسم الحصاد *Reaper* ، الذى توصل

إلى أسماء المساهمين الثمانية الرئيسيين برغم وجود حظر قانونى على إعلان أسمائهم وهم :- بنك روتشيلد فى لندن وبرلين - وينك لازارد فى باريس - وينك إسرائيل موزيز سيف فى إيطاليا - وينك واريورج فى هامبورج وامستردام - وينك ليهمان فى نيويورك - بالإضافة إلى بنوك أخرى فى أمريكا - إن هذا التشكيل متعدد الجنسية واضح الدلالة على واقع العولة .

بالإضافة إلى ذلك فإن ازدياد الأهمية النسبية للمعرفة وهى عملة دولية بطبيعتها قد قللت من الأهمية النسبية لرأس المال النقدى ، بل وأدت إلى تقليل دوره فى عملية الإنتاج ، وفيما يتعلق بالمواد الخام : فإن التطور الهائل فى وسائل النقل والشحن ، واكتشاف المواد الجديدة ، قلل من الميزة النسبية لتوافر المواد الخام فى أى بلد ، وأبرز مثل على ذلك اليابان التى تستورد معظم المواد الخام الداخلة فى صناعاتها بل والوقود أيضاً .

كما أدت قدرة " التكنولوجيا " وخاصة فى " البيولوجيا " الحيوية والكيمياء الإحصائية ومجالات الإنسان الآلى والتحكم عن بعد إلى التقليل من أهمية الأرض واليد العاملة على حدٍ سواء .

وكان من محصلة ذلك كله أن المنتج النهائى سواء أكان سيارة أم طائرة أم كمبيوتر أصبح منتجاً عالمياً فى كل مكوناته ، سواء أكانت مواد خاماً أم معرفة أم فى العناصر البشرية التى دخلت فى عملية التصميم والإنتاج والدعاية والتسويق ، أم فى طبيعة التمويل .

بل إن كثيرا من المجالات الحاكمة فى الاقتصاد العالمى كالصناعة المرتبطة بالطيران ، والاتصال ، والبرمجيات ، والسياحة [التي تحقق وحدها دخلاً سنوياً قدره ٣,٤ ترليون دولار كل عام وهو ما يمثل ١٠.٢٪ من حجم الدخل القومى العالمى] أصبحت كلها بلا استثناء عالمية فى تعريفها وجوهرها ومدلولها ونشاطها .

وانتشار قوى السوق وسيادة آلياته لا تطبق قيودا فى سعيها لزيادة انتشارها ؛ فهى حين تضع قدما فى منطقة أو مجال تضع قدمها الأخرى بأسرع مما دخلت بالأولى، فالتجارة الدولية لا تطبق حدودا، ولا تعترف بحق أى دولة فيما كان متعارفاً عليه أنه حماية أو دعم أو إجراءات وقائية.

إننا أشبه ما يكون الآن بمن تصادف وجوده فى بدء تفاعل كيميائى لا حيلة له إلا أن يتابع بانبهار أو باستسلام تتابع سلسلة التفاعلات الكيميائية دون أن يستطيع أن يوقف مسيرتها .

المحرك الرابع : تغير الخريطة « الجيوسياسية » العالمية :

لاشك أن تغير الخريطة " الجيوسياسية " للعالم واختلال ميزان القوى الدولى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، وانفراد أمريكا بالسيطرة العالمية ، وهى التى ارتبطت مصالحها وأنشطتها إلى حد كبير بالقطيع "الإلكترونى " ، كان عاملا هاما فى ترسيخ العولمة ، الأمر الذى حدا بتوماس فريدمان أن يعتبر العولمة عملة أمريكية بل أن " بنجامين بارير "

Benjamin Barber يرمز للعولة بأنها عالم " ماك " *McWorld* نسبة إلى سلسلة مطاعم ومحلات " ماكدونالد " الشهيرة الأمريكية .

لقد كان سقوط حلف " وارسو " والاتحاد السوفيتي ضوءاً أخضر للعولة بأن تمد أذرعها بلا حياء ولا تردد إلى كل أنحاء العالم ، وبدون أن تتوقع مجرد المعارضة أو المقاومة .

obeikandi.com

الفصل الثاني

الآثار الجانبية وردود الأفعال للعولمة أو « الكوكبية »

١- الآثار المحتملة على الدولة ومسئولياتها :

يتخوف كثير من المفكرين من أن دور الدولة فى سبيله إلى الاضمحلال ؛ ذلك لأن مهمة الدولة مرتبطة بحدود سيادية تمارس فى داخلها مسئولياتها وسلطاتها . فإذا أصبحت الحدود مسامية أو شفافة أو مستباحة فان قدرة الدولة تضعف بمقدار عجزها عن معرفة أو تتبع ما يدخل أو ينفذ إلى مجال سلطاتها ومسئولياتها ، وتصبح الدولة فى كثير من الأحيان كمن يتتبع شبحاً ، أو يطارد وهماً .

بل إن بعض المفكرين (أمثال " رود لويبرز" *Ruud Lubbers*) : يذهب إلى أن الدولة التى كانت فى ظل النظرية الكينزية الجديدة *Neokeynesian* تقوم بوظيفة حارسه الصالح الوطنى العام ، تحولت إلى القيام بوظيفة حارسه رأس المال العالمى ومصالح " القطيع الإلكتروني " .

وتصبح الدولة فى هذا الإطار ، عاجزة عن القيام بدورها فى إعادة توزيع الناتج القومى بطريقة أكثر عدلا ، وتصبح عاجزة عن حماية مصالح الشرائح الأقل قدرة أو المهمشة ، كما أنها تصبح أقل قدرة على حماية البيئة

والوقاية من آثار تلويثها وتدميرها ، وتنتهى بأنها لا تستطيع أن تحمى السلام الاجتماعى نفسه على أرضها .

ومن الطريف أنها فى النهاية قد لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها الجديدة كحارسة لرأس المال العالمى وضمان عائداته وحماية حقوق الملكية الفكرية ومقاومة الجريمة وضمان الاستقرار والسلام ، وهى ضمانة أساسية للاستثمار سواء كان محليا أو عالميا .

٢ - الآثار الاجتماعية :

وفى إطار العولة قد ينساق كثير من الدول فى سباق نحو القاع أو الهاوية ؛ إذ أنها فى إطار التسابق إلى مزيد من الإعفاءات والحوافز والميزات النسبية التى تعرضها على المستثمر الأجنبى لجذب الاستثمارات العالية تجد نفسها فى مواجهة عجز متزايد فى إيراداتها كما أنها فى إطار الاستجابة لشروط العولة تجد نفسها مضطرة إلى تقليص أو إيقاف الدعم لغير القادرين وإلغاء التأمين على المهمشين والأفراد الأكثر تعرضا للمخاطر ، وعلى حد تعبير الدكتور جلال أمين : "فان بعض الدول تتحول إلى صورة كوميدية لها كل المظاهر الخارجية للدول ذات السيادة ، ولكنها فى الحقيقة تنحصر مهامها فى عملية الإخلاء والتسليم والتسلم " والأمر هنا لا يعكس وجهة نظر معادية للعولة أو صادرة من موقف عقائدى معاد لها، ولكن أشد أنصارها لا يجد حرجاً فى التصريح بمعنى هذه الأفكار ، فعلى سبيل المثال : يقول

"توماس فريدمان": "الأمل الوحيد أمام الفقراء والبؤساء هو أن يتذكروهم الأغنياء".

ويقول "ساسكيا ساسين" أحد أهم كتاب العولة: "إن القطيع الإلكتروني ذا الألف ذراع" وقد يكون تعبير "التنين الإلكتروني ذو الألف مخلب" أكثر دلالة على أن هذا القطيع يتحكم فى نصف رأس المال العالمى من خلال ٢٥ سوقا مالية تتعامل فى ٢٠,٩ ترليون دولار" ولا يقتصر تحكم القطيع على الأسواق المالية، يضارب فيها ويزعزع احتياطاتها ويستنزف مواردها، فانه أيضا له مؤسساته العقابية أمثال: "ستاندارد أند بورز" *Standard & Poors* "ومودى" *Moody* التى يوكل إليها مهمة المراقبة والتلصص على الدول والمؤسسات، والتسلل داخلها لمراقبة مدى التزامها بشروط العولة وقوانينها فإذا ما عصت أو تلاكأت أطلقت عليها كلاب الصيد تنهش اقتصادياتها، وتبرز لها كروتا حمراء تطردها من السوق وتخرب مؤسساتها، ومن اللافت للنظر أن الشركات الخمس الكبرى فى مهنة المحاسبة الدولية شركات أمريكية تابعة للقطيع الإلكتروني.

وأن من شروط العولة الرئيسية أن تتم المراجعة المالية والاقتصادية فى إطار عالمى.

أما من يرضى بشروط القطيع وإدارته، ويلبس قميص "التكتيف الذهبى" *Golden Straightjacket* على حد تعبير "توماس فريدمان"

فإنه يحصل على صكوك الغفران ، ويعطى شهادات صلاحية تمهد لمزيد من الاستثمارات الأجنبية والوجود العولى ، بعض هذه الشروط ضرورى من وجهة نظر الإصلاح الاقتصادى ، ولا اعتراض لنا عليها ، ولكن هناك شروطاً أخرى قد تتعارض مع مصالح دول معينه وشرائح اجتماعية غير قادرة .

الشروط التى يملئها " القطيع الإلكتروني " نمطيه وإجبارية :
الخصخصة لكل الشركات المملوكة للدولة ، وتحرير التجارة الداخلية والخارجية ، ورفع الحواجز الجمركية ، الحد من التضخم ، تقليص قدرة البيروقراطية الحكومية ، وإلغاء كافة القيود على الاستثمارات الأجنبية ، وتحرير أسواق المال ، حرية الأجانب فى التملك ، إلغاء الدعم ، تحرير نظام التأمين والمعاشات ، وترك المسؤولية فى ذلك للأفراد ، النمطية فى نظام المحاسبة والمراجعة المالية الخاضعة للإشراف العولى .

فى عام ١٩٩٢ حدث أن أحد أفراد هذا القطيع وهو (جورج سورس) المتسبب فى الأزمة المالية فى شرق آسيا اختلف مع رئيس الوزراء البريطانى " جون ميچور " وكان ذلك فى سبتمبر .. اختلف معه حول تقدير قيمة الجنيه الإسترلينى ، وكان رأى " سورس " أنه لا مفر من تخفيض قيمة الجنيه الإسترلينى ، قابل " جون ميچور " هذا الرأى بالرفض التام ، وأعلن أن موقف إنجلترا الاقتصادى متين ، وقرر بإبء وشمم عدم

الخضوع لما قاله " سورس " ولم تمض بضعة شهور إلا واضطر " جون ميجور " مرغماً إلى تخفيض قيمة الجنيه الإسترليني بمقدار ١٢٪ .

الهند عندما أطلقت قنبلتها الذرية .. فوراً أنزلتها " ستاندارد آند بورز " من مرتبة الاستثمار إلى مرتبة المخاطر .. !

وتكررت المشاهد بصور مختلفة مع ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا .

نظام العولمة له قوة طارئة مركزية تقتلع الانسان من جذوره .. ومن تربته .. يتخلخل النسيج الاجتماعي بسببه ؛ فهو لا يطبق حواجز أو قيوداً يجتاح كل الحدود الجغرافية والوطنية ، وكثيراً ما تكون الأخلاقية ؛ فالسوق في النظام الجديد لا تطبق حدوداً .

إن نظام العولمة لا يفكر فيما نتعارف عليه في مجتمعنا وما يطلق عليه أو اصطلح على تسميته (الصالح العام) ؛ لأنه ليس في أولوياته أو على أقصى تقدير فهو يوكل المهام التي تتعلق بهذا الصالح العام إلى مؤسسات هلامية أو وهمية لا تستطيع أن تقوم بدور فاعل ، علماً بأن (دولة الرفاهية أو دولة الرعاية الاجتماعية) هو اختراع رأسمالي - " بسمارك " - " تشرشل " - " روزفلت " " فبسمارك " هو الذي اخترع معاشات العجزة والرعاية الصحية و" تشرشل " هو الذي أقام أول نظام شامل للتأمين ضد البطالة و" روزفلت " هو الذي خطط لدولة الرفاهية الاجتماعية التي أنقذت النظام الرأسمالي ، كلهم كانوا نبلاء من

الطبقة الرأسمالية ، وأفكارهم هي التي أطالت عمر الرأسمالية ، وجعلت النظام الرأسمالى يسود، وساعد فى القضاء على الشيوعية ، وكان هذا ذكاء منهم .

أما الآن فقد وصل النظام الرأسمالى إلى درجة تصور فيها أنه لا يحتاج للصالح العام ، " والقطيع الإلكتروني " فاق جشعه ونهمه كل الحدود لدرجة أنه لا يعطى الأهمية للصالح العام ، ولهذا يقول " توماس فريدمان " : المقولة الغربية التي أشرنا إليها من قبل : (إن أقصى أمل للفقراء والبؤساء هو أن يفكر فيهم الأغنياء أو يتذكروهم الأغنياء) .

نحن نجابه تحديا خطيرا ، نحن بلد فيه حضارة ٧٠٠٠ سنة وبه طبيعة خاصة بما فيه من جذور، وتقاليد، ومعتقدات، وتماسك ووسطية وانفتاح ، وصفات تميز هذا الشعب .. إننا لا نستطيع أن نغامر بالتعرض لكل المضاعفات التي يمكن أن تحدث فى هذا الإطار ، والمضاعفات هذه مدروسة والغرب بمفكره يتكلم عنها الآن .

ولا تقتصر آثار العولمة على تضاؤل قدرة الدولة فى حماية السلام الاجتماعى ، ولكن الثورة التكنولوجية والمعلوماتية أدت إلى تغيرات جوهرية فى سوق العمل ، والتركيبية الاجتماعية لقوة العمل فى معظم البلاد .

لقد كان الأمل فى البداية انه فى إطار الموجه الثالثة فإن اندثار مهن معينة ، وإحلال الانسان الآلى و" السوبر كمبيوتر " محل أعداد كبيرة

من القوة العاملة ، سيخلق فى نفس الوقت فرصا جديدة ، ومهنأ مستحدثه، وأنه سيولد صناعات فرعية تخلق فرص عمل جديدة ، ومتجددة من خلال ما يعرف باسم " *Trickle-Down Technology* " الذى تتوالى من خلاله عمليات تنشيط وتجديد واستحداث مستمر "لتكنولوجيات" جديدة ، ولقد حدث فعلاً أن تحقق هذا إلى حد ما ، ولكنه فى حالات كثيرة ودول متعددة قصرت الآمال عن مواجهة متطلبات الواقع .

وفى أمريكا مثلاً حدث شرح اجتماعى هائل بين من يملكون تعليماً متميزاً رفيع المستوى أو تعليماً جامعياً وبين من تلقوا فقط تعليماً أساسياً ولم يكملوا تعليمهم العالى ؛ فقد ثبت فى السنين الأخيرة أن فرص العمل المتاحة كانت تتناسب طردياً مع مستوى التعلم ، وأن احتمالات البطالة كانت من نصيب من لم يكملوا تعليمهم ، وحدث من جراء هذا شرح اجتماعى خطير؛ لأن غالبية الذين فقدوا أعمالهم كانوا من السود أو الأقليات ، وأدى هذا إلى شعور بالتفرقة داخل المجتمع ، وصاحب هذا الشرح الاجتماعى شرح آخر ، فقد زادت الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وطبقاً لما يقوله "ليستر ثورو" :- " فان خمس المجتمع الأمريكى الأكثر غنى قد زاد غنى ٩٪ بينما ازداد خمس المجتمع الأفقر فقراً ٥٪ " وازداد لذلك تآكل الطبقة الوسطى .

وفى مصر: فإن نسب البطالة أيضاً كانت متناسبة مع مستوى التعليم.. ففى دراسة أجراها مجلس الوزراء ثبت ان البطالة المتعلمة فى مصر- ويبلغ حجمها [١.٤ مليون] عام ١٩٩٦- كانت نسبة البطالة فى التعليم الجامعى لا تتجاوز ١٠٪، فى حين تصاعدت نسب البطالة فى التعليم المتوسط والفنى إلى أكثر من ٨٠٪.

وعلى المستوى الدولى : فإن الدول التى سبقت إلى الدخول فى العولة من موقع المتقدمين كانت أقل عرضة لاحتمالات البطالة بينما كانت الدول النامية والدول الفقيرة أقل حظاً بكثير، فشاعت فيها ظاهرة البطالة التى تصاحبها أعراض الفقر والمرض والجوع والضياع .

ولا تقتصر هذه الآثار على الدول التى تتعرض لها مباشرة ، بل إنها تشكل " قنبلة موقوتة " تهدد بالانفجار فى الدول الغنية والمتقدمة ؛ إذ أن احتمالات الهجرة الجماعية غير القانونية واحتمالات الإرهاب والتطرف واحتمالات انتشار الأوبئة الخطيرة أو تسربها إلى الدول الغنية يتعاظم مع ظاهرة العولة وثورة الاتصالات وغير ذلك .

إن من سخریات القدر أن الدول التى غلبت آليات السوق ، ولم تكن - فى سباقها الرهيب نحو الريح - باعتبارات السلام الاجتماعى أو بمصير غير القادرين ، تصبح عرضة للمعاناة من آثار العولة شأنها

فى ذلك شأن الفقراء والضعفاء ، وتتحقق - بطريقة مأساوية - المقولة الشهيرة : " المساواة فى الظلم عدل " .

بالإضافة إلى ذلك فان ظروف العمل المتاحة فى السوق العالمية للعمال من الدول الفقيرة الذين تتاح لهم فرص عمل فى مؤسسات العولة ظروف بالغة السوء أحياناً ، بالإضافة إلى تزايد ظاهرة عمالة الأطفال بما فيها من أخطار ومظالم اجتماعية وصحية وسياسية .

إن العولة كنظام اقتصادى لابد لها من إطار اجتماعى ، إن القرية الكونية لابد لها من مجتمع تربط بين أفرادها وجماعاته علاقات من الاهتمام المشترك ، والمشاركة الوجدانية ، والمشاعر الإنسانية . لابد أن يكون للعولة وجه إنسانى ، ولابد للنظام الاقتصادى من مجتمع بشرى ، وإلا تحول " القطيع الإلكتروني " إلى وحش كاسر وتحولت القرية الكونية إلى غابة .

٣- الآثار السياسية :

لقد أدت سيطرة " القطيع الإلكتروني " ذى الألف ذراع إلى إضعاف المؤسسات الديمقراطية بدءاً من الدولة كحارس للسلام الاجتماعى وكمسئولة عن دعم الصالح العام .

ومروراً بالأحزاب السياسية التى يبدو أنها قد فقدت أخيراً كثيراً من فاعلية تأثيرها فى الحياة السياسية ، وفقد عديد من زعمائها

بريقهم السياسى و " الكاريزما " Charisma التى كانوا يعتمدون عليها وأصبح الكثيرون منهم تحت سيطرة " القطيع الإلكتروني " وعرضه لابتزازه إذا ما خرجوا عن الطوع .

كما أن المنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية التى تعاضم دورها فى العقدين الأخيرين بدأت تمارس دوراً متزايداً فى الحياة السياسية على حساب الأحزاب .

ولقد حرص " القطيع الإلكتروني " أن تمتد أذرعته إلى الحملات الانتخابية والرئاسية وإلى الانتخابات البرلمانية - ترشيحاً ومساندة مالية وإدارة للحملات الانتخابية - فضلاً عن سيطرته على كثير من وسائل الإعلام التى - تشكل إلى حد كبير - الرأى العام .

وأخيراً فإن الديمقراطية تتناقض أساساً مع الرأسمالية واقتصاد السوق فعلى حين تتأسس الديمقراطية على صوت واحد لكل شخص وموقف متساو أمام القانون وتكافؤ فى الفرص فإن الرأسمالية تمجد عدم التكافؤ، وتشجع عليه إذ أن الأساس هو مزيد من الربح ، وهو نقيض المساواة ، كما أن اقتصاد السوق لا يطبق قيوداً أو قواعد يفرضها النظام الديمقراطى حرصاً على الصالح العام .

فى المجتمع الأمريكى هناك نسبة تبلغ حوالى ٤٪ من المواطنين على قمة السلم الاجتماعى تمتلك أكثر مما يملك ٥١٪ من المجتمع الأقل دخلاً .

وإذا نظرنا إلى رموز العولمة فإننا نجد أن بعضهم يمتلكون ثروات تزيد عن الدخل القومى لعدد كبير من الدول النامية مجتمعة أليس غريبا أن "جورج سورس" أحد رموز العولمة ، والذي كان وراء أزمة جنوب شرق آسيا ، هو نفسه الذى أسس مؤسسة غير حكومية ، هدفها الأساسى هو دعم ورعاية ما يسميه بالمجتمع المفتوح *Open Society Fund* !! ويبلغ حجم الاعتمادات التى يخصصها من أمواله الخاصة ٣٠٠ - ٤٠٠ مليون دولار سنويا يمول بها جمعيات غير حكومية وأهلية غير خاضعة لأى إشراف حكومى !! أو التى يؤدى نشاطها إلى تقليل حجم تدخل الدول فى كافة المجالات !! فهل هو يهدف إلى شل يد الدولة عن التوجيه والإشراف ؟ أو التدخل لتأكيد السلام الاجتماعى والصالح العام وحسن توزيع الدخل القومى ؟ أو انه مجرد عمل خيرى فى إطار حسن النوايا ؟!

وهل تنبع أهداف "جورج سورس" من إيمانه بأن من أهم عيوب النظام الرأسمالى العالمى أنه قد سمح لآليات السوق أن تتسلل إلى مجالات لا تمت إلى السوق بصلة ؟ وأن طرق أصولية اقتصاد السوق (أو مذهب العصمة للسوق) *Market Fundamentalism* سانجة وغير منطقية؟؟ وأن قوى السوق لو تركت تباشر سلطة مطلقة حتى فى المسائل الاقتصادية ستؤدى إلى فوضى شاملة وسقوط النظام الرأسمالى نفسه ؟؟ وأن العالم الآن فيه اقتصاد عالمى بدون مجتمع عالمى ، وأنه

لا بد من تواجد نظام سياسى عالمى لاتخاذ القرار، وأن هذا النظام بطبيعته يجب أن يتعدى إطار سلطة الدول وأن يتخطى حدودها؟!؟
هل يا ترى "سوروس" يهدف من مؤسسته "المجتمع المفتوح" أن يمهد لمثل هذا النظام السياسى العالمى الذى يحجم عملياً دور الدولة ؟ أو أنه ينفق هذه الأموال الضخمة لأغراض خيرية واعتبارات إنسانية تعبر عن نزعة خير دافئة ، أو صحوه ضمير يحاسب نفسه على ما سببه من شقاء ملايين من البشر كانوا ضحية مضارياته العبقريّة ؟!!؟

٤- الأهمـن :

كما قلت من قبل فلقد شهدت جولتى العولة " فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين " موجات من العنف لم يسبق لها مثيل حروياً عالية وصراعات وتصفية عرقية ، موجات من التطرف والإرهاب ، سفكاً غير مسبوق للدماء بما شكله من موجات من الهجرة غير القانونية ، وتزايداً للمنظمات والأعمال الإرهابية وازدياد نشاط عصابات إرهابية بدأت فى نشر الجريمة المنظمة فى مجالات التقدم "التكنولوجى" والاتصالات ومن عصابات لقطع غيار الأعضاء ، إلى عصابات للدعارة والقمار ، إلى عصابات للابتزاز والقتل المعنوى .

فضلا عن احتمالات الأعمال الإجرامية والإرهابية التى يقوم بها المهمشون والضائعون والمتمردون فى الدول والمجتمعات التى سقطت ضحية العولة .

٥- البيئة :

إن زيادة معدلات الإنتاج والاستهلاك مع نظام العولة هوشىء طبيعى مع الثورة التكنولوجية والمعلوماتية ، ومع السياسة الثابتة لسيادة اقتصاد السوق الذى يهدف دائما ويصفة منتظمة إلى خلق حالة من عدم الرضى عن المنتجات القائمة ، وبذلك فهو يمهّد الطريق لدخول منتجات جديدة بمواصفات جديدة يفترض أنها تعمل على إرضاء المستهلكين ، ثم يتولى جهاز الإعلام الرهيب خلق حالة جديدة من عدم الرضى وهكذا دواليك، وعلى حد تعبير " شومبيتر " وزير مالية النمسا الأسبق : " فإن جوهر الرأسمالية هو عملية التدمير الخلاقه " : " تدمير القديم - والمنتج الأقل كفاءة - وإحلال ما يفترض أنه أكثر كفاءة " .

ويتزايد معدلات الإنتاج والاستهلاك يزداد تدهور البيئة ؛ ذلك أن استراتيجيه العولة لا تضع بين أولوياتها معايير الحفاظ على البيئة وغيرها كالصحة وظروف العمل ؛ إذ أن السياسة الاقتصادية للعولة من صالحها اقل المعايير دقة وأدناها تكلفة لهذه القضايا . وبما أن الدولة فى ظل العولة مشغولة بالجدوى الاقتصادية والإصلاح الاقتصادى ، فإن قضايا البيئة عادة تتراجع فى أولويات اهتمام الدولة إلى الخلف ، كما أنه لا يوجد نظام مؤسسى دولى يستطيع أن يسبغ الحماية الخاصة بالبيئة على الدول المختلفة فى وجه الاستهلاك المدمر .

ولا تقتصر آثار تراجع الاهتمام البيئي وآثاره المدمرة على الجيل الحالي والشرائح الأكثر تعرضاً فيه ، وإنما خطورتها أنه يشكل اعتداء لا أخلاقياً على قدرات وحقوق بل والنظام الجيني للأجيال القادمة .

٦- الثقافة :

بعد أن تحدثت عن (إيدز المعرفة) اليوم يتكاثرت الكلام عن ظاهرة اسمها *Technopoly* وسيطرة " التكنولوجيا " الفائقة على الثقافة والحضارة وما نتج عنها من موجات من الانحلال الخلقى والتفكك الأسرى والعنف والجريمة والإدمان والتهرب من المسؤولية بل والهروب من الحياة ذاتها بالانتحار ، هذه ظواهر تجتاح كثيراً من دول الغرب المتقدمة .

اليوم بدأت في إطار " التكنولوجيا " المتطورة تنشأ ثقافة للعنف في كثير من البلاد المتقدمة والنامية على حدٍ سواء .

إن حجم صناعة البرامج الإلكترونية الخاصة بالتسلية والتي أساسها العنف ١٦ مليار دولار سنوياً في أمريكا وحدها كما قلنا من قبل .

لعلكم تتذكرون ما أشرت إليه من قبل .. حادثة طالبتي المدرسة الأمريكية الذين قاما بقتل زملائهما وناظرا المدرسة

هذان الطالبان هما ضحيتان لهذه الصناعة المدمرة التى سبق وان حذر منها الرئيس الأمريكى السابق إيزنهاور فى يوم من الأيام وسماها " *The Military Nintendo Complex* " والتى أصبحت اليوم حقيقة واقعة ، فقد ثبت من التحقيقات أن الأولاد كانوا يشاهدون هذه البرامج الإليكترونية ، وأن " السيناريو " الذى نفذ كان موجودا فى برنامج اسمه " *Doom* " وقد وجدوا شريط " فيديو " قام الطالبان بإعداده لتصوير أحداث مشابهة لاقتحام المدرسة ، وأنهما استعارا لنفسيهما اسماً مثل *Killagan (Kill Again)* وتعنى : " أقتل ثانية " .

وبالإضافة إلى هذا فإن الرئيس كلينتون حذر فى عام ١٩٩٨ م فى خطاب رسمى من ثقافة العنف ، وأن صناعة " الفيديو " والسينما والبرامج " الإليكترونية " التى تبث على الشعب الأمريكى تركت تأثيرات خطيرة جدا .. فقد أزلت الحد الفاصل بين الحقيقة والخيال لدى أجيال كثيرة ؛ فالطالبان اللذان قتلوا زملاءهما كانا ينفذان " سيناريو " أو مشهداً من السيناريوهات التى شاهدها فى " الكمبيوتر " و" الفيديو " ولم يشعرا أنهما قاما بجريمة .

ومن الثابت علمياً أن تعود الإنسان على العنف يقلل من إحساسه بجرم أو غرابة أو استهجان هذا الفعل (عملية تقليل الحساسية) *Desensitization* .

وكما قلنا من قبل فإن إحساس الإنسان الذي تعود على مظاهر القتل يحصنه ضد أى تعاطف مع عدم القتل ، نحن نعيش مرحلة نبني فيها ثقافة عالمية يؤثر فيها العنف والتدمير على الأجيال القادمة .

المفكرون الأمريكيون يقولون :- " إن المجتمع الأمريكى متسمم بالتكنولوجيا *Technologically Intoxicated society* " لا أحد ينكر أن " التكنولوجيا " استطاعت أن ترفع مستوى الحياة فى كثير من الأحيان واستطاعت أن تحقق الرخاء فى كثير من الدول ، وأن إنتاجية هذه " التكنولوجيا " والقيمة المضافة لها عالية جدا ، استطاعت هذه " التكنولوجيا " أن تجد حلولاً وعلاجاً لكثير من المشاكل والأمراض كما استطاعت أن تسهل الحياة فى كثير من الأحيان ، ولكنها ليست خيرا على طول الخط ، وإنما تحمل فى طياتها أخطارا يجب أن ننتبه إليها ؛ "فالتكنولوجيا " التى كان هدفها الأساسى هو اختصار الوقت نجدها اليوم قد ابتلعت الوقت ، اليوم الإنسان الذى تحيط به "التكنولوجيا" من كل جانب أصبح وقته موزعا فى التعامل مع هذه " التكنولوجيا " التى طمست الحد بين الحقيقة والخيال ، هذه " التكنولوجيا " مهدت لثقافة العنف وأثرت على التماسك العائلى والاجتماعى .. اليوم أفراد العائلة الواحدة يعيشون فى غرفة وهم فى بيت واحد ، كل منهم فى حجرة ويمسك بجهاز ويتعامل مع أشياء منفردا ووحيداً ، وأقسى أنواع الغربة " هى الغربة المكانية التى يعيشها الانسان " .